فقه أهل البيت عليهم السلام

فصليّة فقهيّة متخصّصة

الطبعة الثالثة

- مايضمنه الجاني من خسائر
- النقود الورقية
- بحث في قلم التشريح
- التلقيح الصناعي
- مسؤولية الطبيب و ضمانا
- شرطية الذكورة في المفتي
- المناقصات
- دروس في علم الفقه - معونة الظالم
- الفقه و المنهج الموسوعي - القسم الثاني
- نافذة: المصطلحات الفقهية - آنية /٣/
- من فقهائنا: الصدوق الثاني - القسم الثاني

٥/٦

العدد الخامس و السادس - السنة الثانية ١٤١٨ هـ/١٩٩٧ م

من فقهائنا

(٣)

الصدوق الثاني

محمد بن بابويه القمّي قدس سره

ـ القسم الثاني ـ

❑ الشيخ صفاء الخزرجي

٣ ـ عصره

من الواضح أنّ نشاط الحركة العلمية أو خمولها في كلّ مكان وزمان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوضع السياسي ومتغيّراته. وقد شهد تأريخنا السياسي من حالات التفاعل بين حركة العلم وبين الظروف والأوضاع السياسية الكثير، فعندما دبّ الضعف في الدولة الأُمويّة وانقرض سلطان حكّامها الذين عرفوا بجاهليّتهم وابتعادهم عن رحاب العلم والثقافة تنفّست الأُمّة الإسلامية الصعداء، سيّما أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث استغلّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام فرصة هذا الانفراج السياسي ـ الحاصل من سقوط دولة الأُمويّين وقيام دولة بني العبّاس

الفتيّة ـ في تنشيط الحركة العلمية وتفعيلها فازدهرت حاضرة المدينة المنوّرة والكوفة على عهد الإمامين الباقرين عليهما السلام ونفقت سوقها واستقام الحال على ذلك فترة ، ثمّ تناوبته بعد ذلك في زمن الدولة العبّاسية فترات تراوحت بين الضمور والظهور ، والنشاط والفتور ، بحسب رغبة الحكّام العبّاسيّين في العلم وأهله إلّا أنّ الخطب اشتدّ على الشيعة بشكل أكثر أواخر الدولة العبّاسية وساءت الأوضاع وأخذوا كلّ مأخذ ، فانحسرت الحالة العلمية وقلّ ارتباط العلماء والرواة بالأئمّة المعصومين نتيجة الظروف السياسية الحرجة التي أحدقت بهم إلّا أنّ تلك المحنة أعقبت انفراجاً ويسراً ؛ وذلك عندما عصفت الأحداث بحكم العبّاسيّين وآل أمرهم إلى الوهن وضعف مركز الخلافة ببغداد حتى أوشك الأمر أن يخرج من يدها بالكلّية وآذنت أركانها بالتداعي والانهيار . في تلك الحقبة الملتهبة بأزمة الصراع السياسي من أجل القبض على دست الحكم ظهرت دول جديدة التأسيس في هذا الجزء من العالم الإسلامي وذاك ، وقد عُرفت تلك الدول الجديدة بولائها أو تشيّعها لأهل البيت عليهم السلام ممّا فسح الفرصة من جديد للشيعة في أن يستعيدوا نشاطهم ويتمتّعوا بحرياتهم السياسية والمذهبية وإظهار معتقداتهم .

ويمكن الإشارة إلى تلك الحكومات التي أسهمت في بناء الوضع الجديد[1] ، وهي عبارة عن :

١ ـ دولة الأدارسة في المغرب (١٩٤ ـ ٣٠٥) .

٢ ـ دولة العلويّين في الديلم (٢٠٥ ـ ٣٠٤) .

٣ ـ دولة الفاطميّين بمصر (٢٩٦ ـ ٥٦٧) .

٤ ـ دولة البويهيّين في بلاد العراق وإيران (٣٢١ ـ ٤٤٧) .

٥ ـ دولة الحمدانيّين في سوريا والموصل وكركوك (٢٩٣ ـ ٣٩٢) .

٦ ـ الامارة الطاهرية في هرات (٢٠٥ ـ ٢٥٩) .

ولقد كان للدولة البويهيّة الضاربة بملكها على مركز الخلافة ببغداد وأكثر بلاد إيران كفارس والأهواز وكرمان وإصبهان وهمذان والريّ وجميع بلاد فارس الجنوبية وغيرها من بلاد العالم الإسلامي حتى خطب لحكّامها بعمان ،

كان لها الدور الفاعل والبليغ في تشجيع الحركة العلمية وتطويرها من خلال اتّصال حكّامها وأُمرائها بالعلماء وإكرامهم وعقد المناظرات العلمية في مجالسهم، وكذلك من خلال إنشاء المكتبات كمكتبة عضد الدولة بشيراز ومكتبة دار العلم التي أسّسها سابور بن اردشير عام ٣٨١ أو ٣٨٣ في بغداد، وتعتبر من المكتبات الغنية في عالمنا الإسلامي، ومكتبة الصاحب بن عبّاد (م٣٦٠)، ومكتبة ابن العميد في الريّ.

وامتازت هذه البرهة من تاريخ الشيعة بامتيازات قلّما حصلوا على مثلها في تأريخهم الطويل المليء بالصراع وكمّ الأفواه ومصادرة الحرّيات. ولا شكّ فقد نعمت مراكز العلم سيّما في قم والريّ تحت ظلّ هذا الاستقرار السياسي واتّسع نشاطها واتّصالها بسائر البلاد والحواضر الأُخرى خاصّة عاصمة العلم ببغداد، كما ساعد هذا الوضع على فسح المجال للعلماء للتجوال والترحال إلى مراكز العلم الأُخرى وعقد المناظرات واللقاءات فيما بينهم.

وقد عاصر الشيخ الصدوق ﷺ من حكّام الدولة البويهيّة الحسن بن أبي شجاع بويه الملقّب بركن الدولة الذي بسط ملكه على الريّ وإصفهان وهمذان وسائر بلاد العراق العجمي، وكانت أيام ملكه ـ التي دامت أربعاً وأربعين عاماً حتى وفاته سنة (٣٦٦)[٢] ـ عامرة بالعدل بين الرعية وحسن السيرة وتكريم أهل العلم. قال ابن الأثير: «كان حليماً كريماً، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنده، رؤوفاً بهم عادلاً في الحكم بينهم، وكان متحرّجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء يرى حقنها واجباً إلّا فيما لا بدّ منه، وكان يحامي على أهل البيوتات، وكان يجري عليهم الأرزاق، ويصونهم عن التبذّل، وكان يقصد المساجد الجامعة ...، ويتعهّد العلويّين بالأموال الكثيرة، ويتصدّق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاصّ والعامّ.. رضي الله عنه وأرضاه، وكان له حسن عهد ومودّة وإقبال». وقال في وفاته: أُصيب به الدين والدنيا جميعاً؛ لاستكمال جميع خلال الخير فيه[٣].

ولمّا نزل شيخنا الصدوق (طيّب الله رمسه) الريّ أكرمه ركن الدولة وأدناه

وعقد له مجلس المناظرة في دار إمارته بمحضر ومشاركة منه ، وللشيخ في مجلسه خمس مناظرات جرت بينه وبين علماء العامّة ، وقد سجّل القاضي نور الله التستري بعضها[٤] .

وعلى كلّ حال ، فقد تمتّع الشيخ الصدوق (عليه الرحمة) بحرّية مطلقة في إظهار آرائه ومعتقداته في حلّه وترحاله في عهد ركن الدولة .

وأمّا فيما بعد وفاة ركن الدولة وجلوس ابنه عضد الدولة مجلسه سنة ٣٦٦هـ الذي حكم من هذا التأريخ إلى سنة ٣٧٢هـ ، فلم يحدّثنا التاريخ عن العلاقة فيما بينهما على وجه التحديد ، والذي نحدسه من سيرة عضد الدولة مع العلماء هو تبجيلهم وتعظيمهم وإجراء الأرزاق على الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين وغيرهم[٥] ، فلا بدّ أن تكون للشيخ الصدوق نفس المكانة المرموقة التي كان يتمتّع بها على عهد ركن الدولة . إلّا أنّ الذي يُقطع به أنّه ﷺ كان على صلة وثيقة بالصاحب بن إسماعيل بن عبّاد أبي القاسم العالم والأديب الفاضل وزير فخر الدولة البويهي سنة ٣٧٣[٦] ، حتى أنّه صنّف كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام لقصيدتين رائعتين للصاحب في مدح الإمام الرضا عليه السلام وإبلاغه السلام والتحيّة بلسان المنظوم . والذي يكشف عن طرف من هذه العلاقة ما أثبته الصدوق عليهم السلام في أوّل ديباجة الكتاب حيث قال : « فصنّفت هذا الكتاب لخزانته المعمورة ببقائه ، إذ لم أجد شيئاً آثر عنده وأحسن موقعاً لديه من علوم أهل البيت عليهم السلام ؛ لتعلّقه بحبّهم واستمساكه بولايتهم واعتقاده بفرض طاعتهم وقوله بإمامتهم وإكرامه لذرّيتهم (أدام الله عزّه وإحسانه إلى شيعتهم) ، ثمّ قال : قاضياً بذلك حقّ إنعامه عليّ ومتقرّباً به إليه لأياديه الزهر عندي ومننه الغرّ لدي »[٧] . وعلى كلّ حال ، فقد استثمر الشيخ الصدوق فرصة استتباب الأمن واستقرار الوضع آنذاك وقربه ومكانته من الأُمراء البويهيّين ، لخدمة المذهب وإعلاء كلمته من خلال مباحثاته وسجالاته مع مخالفيه في الاعتقاد ، ومن خلال ما أنجز من مصنّفات ضخمة وتراث عملاق ، خاصّة أثره الخالد « من لا يحضره الفقيه » وكتابه العظيم « مدينة العلم » الذي ضنّ الزمان به على الباحثين وغيّبته يد الأحداث .

٤ ـ رحـلاتـه

لا يخفى على أحد ما تنطوي عليه كثرة الأسفار والتطواف بين البلدان وحواضر العلم من عظيم الفائدة والأثر في تطوير حركة العلم وتعميقها ، على الرغم ممّا يكتنف ذلك من الأخطار والمشاقّ ، سيّما في تلك الأعصار المتقدّمة . إلّا أنّ كلّ ذلك يضؤل إذا بات الهدف مقدّساً ، وكانت العزيمة راسخة فـ « ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النيّة »[٨] .

وقد كان الشيخ الصدوق (عليه الرحمة) من أُولئك الأفذاذ الذين قويت فيهم العزيمة في الله ولله ، فهاجر من أجل طلب العلم ونشره ؛ إذ ليس من بلدة أو مدينة كان الشيخ يدخلها إلّا وأفاد فيها أو استفاد من شيوخها وأرباب الرواية والحديث .

والذي نحسبه أنّ الذي كان يدعوه إلى الإكثار من الترحال والسفر حتى بلغ مجموع أسفاره إلى أصقاع العالم الإسلامي سبعة عشرة رحلة ـ بحسب ما ظهر من أسانيد كتبه[٩] ـ هو الأُمور التالية :

١ ـ حبّه الشديد وشغفه المفرط في طلب العلم وتحصيله .

٢ ـ اعتقاده بعدم إيفاء حاضرته العلمية في قم والري بما يرومه ويريد البلوغ إليه ؛ لوجود الكثير من الفقهاء والمحدّثين في حواضر العلم الأُخرى الذين لا تتحقّق الإفادة منهم إلّا بشدّ الرحال إليهم .

٣ ـ شعوره بالمسؤولية في كثير من هذه الأسفار كما في سفره إلى الريّ وإقامته فيها بطلب من أهلها وعلمائها ، وكذا أسفاره الأُخرى التي كان يتولّى فيها نشر المذهب والذبّ عن عقائده ودحض الشبهات الموجّهة ضدّه وتثبيت قلوب المؤمنين وإرشادهم .

وإليك تفصيل أسفاره ورحلاته التي طاف فيها كثيراً من البلاد ، حتى وصفه بـ (الرحلة) كثير ممّن تعرّض لترجمته[١٠] .

١ ـ **الريّ**: وهي موطنه الثاني من بعد قم ، وأوّل البلاد التي نزل فيها ، حيث

بقي فيها إلى أواخر حياته حتى توفّي ودفن في تربتها . والريّ مدينة مشهورة من أُمّهات البلاد وأعلام المدن[١١] ، قال الاصطخري عنها : « والريّ مدينة ليس بعد بغداد في المشرق أعمر منها » ، وقال أيضاً : « كان السواد الأعظم فيها من الشيعة »[١٢] . وعلى كلّ حال فقد جعلها الشيخ الصدوق منطلقاً لأسفاره الأُخرى يعاود إليها الرجوع بعد كلّ سفر ، وقد سمع فيها من مشايخها سنة ٣٤٧ كأبي الحسن محمّد ابن أحمد بن عليّ الأسدي المعروف بابن جرادة البردعي ، ويعقوب ابن يوسف بن يعقوب ، وأحمد بن محمّد بن الصقر الصائغ العدل ، وأبي عليّ أحمد بن محمّد بن الحسن القطّان المعروف بأبي عليّ بن عبد ربّه الرازي ، والأخير من مشايخ الريّ كما وصفه الشيخ الصدوق[١٣] .

٢ ـ **خراسان**: ورد الشيخ الصدوق ﷺ خراسان ثلاث مرّات :

الأُولى : وكانت في شعبان من سنة ٣٥٢ ، وهي التي استأذن فيها الأمير ركن الدين البويهي في الزيارة لمشهد الرضا عليه السلام فأذن له وسأله الدعاء والزيارة عنه . ثمّ رجع في تلك السنة . **الثانية** : في شهر ذي الحجّة من سنة ٣٦٧ أي بعد خمسة عشر عاماً من زيارته الأُولى وسمع فيها من السيّد أبي البركات عليّ بن الحسين الحسيني الحلّي ، وأبي بكر بن عليّ ، ثمّ رجع إلى الريّ قبل محرّم الحرام من سنة ٣٦٨ وأملى فيها في أوّل محرم المجلس السابع والعشرون من مجالس أماليه . **الثالثة** : في سنة ٣٦٨ في شعبان ، وأملى فيها أربعة مجالس . وخراسان من البلاد الواسعة ، معروفة بالعلم والحديث ، قال الحموي واصفاً أهلها « فأمّا العلم فهم فرسانه وساداته وأعيانه »[١٤] ، وفي كتاب الحضارة الإسلامية أنّها جنّة العلماء[١٥] ، وللشيخ الصدوق ﷺ مكانة سامية في نفوس العلماء والمحدّثين بخراسان آنذاك ، قال المجلسي الأوّل ﷺ : « وبعد انصرافه ـ أي الصدوق ـ من الحجّ توجّه إلى خراسان لكثرة مشايخ الحديث فيها من الخاصّة والعامّة من سائر البلاد . واشتهر في خراسان شهرة عظيمة وكان مجلسه حافلاً بالعلماء على الدوام »[١٦] .

وقد تكرّر وروده إلى خراسان مرّات عديدة ـ كما عرفت ـ توقّف في الثانية منها قرابة السنّة ، وأمّا الثانية فلم يُعلم مدّة توقّفه فيها . إلّا أنّ القرائن تدلّ على

طول مكوثه فيها، فقد وصفه النجاشي بأنّه وجه الطائفة بخراسان، ممّا يعني بقاؤه مدّة ليست بالقليلة حتى صحّ نعته بذلك، هذا كلّه على تقدير أنّه لم يدخل خراسان أكثر من ثلاث مرّات، وأمّا لو قلنا بدخوله أكثر من ذلك -ممّا لم يحدّثنا التاريخ به- فالأمر أوضح.

وممّا يشهد لما ذكر أنّ بعض أصحاب التراجم وصفه بالخراساني على حدّ وصفه بالقمّي والرازي[١٧].

٣ - **نيسابور**: وتقع في طريق خراسان، وكان قد وردها في شعبان سنة ٣٥٢ بعد منصرفه من زيارته الأُولى لمشهد مولانا الرضا عليه السلام، وتوقّف فيها وأقام يسمع من مشايخها كأبي عليّ العطّار، وأبي منصور أحمد بن إبراهيم بن بكر الخوزي، وأبي عليّ الحسين بن أحمد البيهقي، وعبدالواحد بن محمّد بن عبدوس، وأبي سعيد محمّد بن الحسن بن محمّد بن علي بن الصلت القمّي، وعبدالله بن محمّد بن عبدالوهاب السنجري، وغيرهم.

وكانت نيسابور من مدن العلم المشهورة آنذاك، وصفها الحموي بأنّها «مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء، فما طوّفت من البلاد مدينة كانت مثلها»[١٨]. وقد ذكرنا سابقاً توقّف الشيخ الصدوق فيها لرفع الالتباس والحيرة عن نفوس الشيعة في أمر الغيبة.

٤ - **مرو**: وفي سفره المتقدّم إلى خراسان من تلك السنة (٣٥٢) ورد مرو وسمع فيها من جماعة، منهم: أبوالحسين محمّد بن عليّ بن الشاه الفقيه المروزي، وأبو يوسف رافع بن عبدالله بن عبدالملك.

٥ - **بغداد**: وفي سنة ٣٥٢ أيضاً وكذا سنة ٣٥٥ دخل بغداد عاصمة العلم ومركز الخلافة وقتئذٍ وحدّث فيها - كما تقدّم عن النجاشي - وسمع منه الشيخ المفيد ووالد النجاشي وأجازه فيها جميع كتبه[١٩] ومحمّد بن طلحة النعالي شيخ الخطيب البغدادي[٢٠] وغيرهم، كما سمع فيها من أبي الحسن عليّ بن ثابت الدواليبي، وأبي محمّد الحسن بن محمّد بن يحيى العلوي المعروف بابن

أبي طاهر ، وإبراهيم بن هارون الهيستي[٢١] ، ومحمّد بن عمر الحافظ . وكان دخوله الثاني (سنة ٣٥٥) بعد رجوعه من الحجّ .

وتوهّم البعض[٢٢] من عبارة النجاشي التالية : « ورد بغداد سنة ٣٥٥ ، وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السن » ، أنّ محلّ سماع الشيوخ منه كان ببغداد ، مع أنّ عمره آنذاك إذا لاحظنا سنة ولادته (حدود ٣٠٦) هو خمسون عاماً ، ولا يقال لمثله أنّه حدث السنّ .

إلّا أنّ التأمّل في عبارة النجاشي كفيل برفع هذا التوهّم ، فإنّ عبارة (وسمع منه شيوخ الطائفة) تتعلّق بسماع المشايخ منه ، لا بدخوله إلى بغداد .

٦ ـ **همدان**: وردها سنة ٣٥٤ في طريقه إلى الحجّ ، وسمع فيها من جماعة منهم : أبو أحمد القاسم بن محمّد بن أحمد بن عبدويه السراج الهمداني ، وأحمد ابن زياد بن جعفر الهمداني وأجازه فيها أبو العبّاس الفضل بن عبّاس الكندي الهمداني .

٧ ـ **الكوفة**: وردها سنة ٣٥٤ في طريقه إلى الحجّ وسمع من شيوخها بمسجدها الجامع : محمّد بن بكران النقّاش وأحمد بن إبراهيم بن هارون الفامي ، والحسن بن محمّد بن سعيد الهاشمي ، وسمع فيها أيضاً من محمّد بن عليّ الكوفي وأبي الحسن عليّ بن الحسين بن شقير الهمداني في منزله بالكوفة وغيرهم .

٨ ـ **مكّة والمدينة**: قصدهما بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٥٤ ، والظاهر أنّ هذه حجّته الأُولى .

٩ ـ **فيد**: منطقة صغيرة تقع في منتصف الطريق بين مكّة والمدينة ، دخلها بعد رجوعه من الحجّ من تلك السنة ، وسمع فيها من أبي عليّ أحمد بن أبي جعفر البيهقي .

١٠ ـ **سرخس**: وردها وهو في طريقه إلى خراسان ، وسمع بها من أبي نصر محمّد بن أحمد بن إبراهيم بن تميم السرخسي الفقيه .

١١ ـ **سمرقند**: وردها سنة ٣٦٨ وسمع بها أبا أسد عبدالصمد بن عبد الشهيد الأنصاري وعبدوس بن عليّ الجرجاني ، وهي من بلاد ما وراء النهر .

١٢ ـ **بلخ**: من بلاد ايران القديمة ، دخلها سنة ٣٦٨ ، وسمع بها من جماعة ، منهم : عليّ الحسن بن عليّ العطّار ، وأبو عبدالله الحسين بن أحمد الاشناني الرازي العدل ، والحاكم أبو حامد أحمد بن الحسن بن عليّ ، وغيرهم ، وأجازه فيها أبو القاسم عبيدالله بن أحمد الفقيه وأبو الحسن طاهر بن محمّد بن يونس ابن حيوه الفقيه .

١٣ ـ **إيلاق**: وهي من أعمال سمرقند ، وردها سنة ٣٦٨ ، وحمل فيها عن أبي الحسن بن عمر بن عليّ بن عبدالله البصري ، وأبي نصر محمّد بن الحسن ابن إبراهيم الكاتب الكرخي ، وأبي محمّد بن بكر بن عليّ بن محمّد بن الفضل الحنفي ، وأبي الحسن عليّ بن عبدالله بن أحمد الاسواري .

١٤ ـ **فرغانة**: وهي من مدن بلخ ، وردها سنة ٣٦٨ ، وسمع فيها عن تميم ابن عبدالله بن تميم القرشي ، وأبي أحمد محمّد بن جعفر البندار الشافعي الفرغاني ، وأبي محمّد محمّد بن عبدالله الشافعي .

١٥ و ١٦ ـ **استرآباد وجرجان**: سمع بهما من أبي الحسن محمّد بن القاسم ، ومن أبي محمّد القاسم بن محمّد الاسترابادي ، وأبي محمّد عبدوس بن عليّ بن العبّاس الجرجاني ، ومحمّد بن عليّ الاسترآبادي .

والذي يبدو أنّ الشيخ الصدوق لم يكن يقصد من مجمل أسفاره المتعدّدة إلى أطراف العالم الإسلامي وأصقاعه طلب الحديث ونشره فحسب ، بل كان يرمي إلى ما هو أبعد من ذلك . فقد كانت أسفاره ورحلاته تحمل رسالة التعريف بمذهب أهل البيت عليهم السلام ومهمّة الدفاع عن معتقداته الحقّة وإظهار تفوّقه ومزاياه في الفقه والحديث والتفسير وغيرها ، خصوصاً إذا لاحظنا أسفاره في البرهة الأخيرة من حياته حيث مكانته العلمية ومرجعيّته بحيث لا يمكن تبرير ذلك بمجرّد الاستزادة في طلب الحديث وضبطه .

٥ ـ مشـــايخه

من الأبعاد الواضحة في حياة الشيخ الصدوق ﷺ كثرة مشايخه ومن لقيهم وتحمّل العلم والحديث عنهم . ولا ريب فإنّ لهذا البُعد الدور الكبير في بناء شخصيّته ﷺ وسعة ثقافته وإلمامه بالمرافق الهامّة من أبواب العلم .

وقد ذكر المحدّث النوري ﷺ في معجم أساتذته ١٩٨ شيخاً [٢٣] ، وزاد على هذا العدد المحقّق الشيخ عبدالرحيم الربّاني ﷺ في مقدّمته على معاني الأخبار جماعة أُخرى استخرجها من أسانيد كتبه المطبوعة ، وهي الفقيه والأمالي والتوحيد وثواب الأعمال وعقاب الأعمال وعلل الشرائع وعيون الأخبار وإكمال الدين ومعاني الأخبار والمقنع والهداية فبلغ مجموع أساتذته ٢٥٢ محدِّثاً . وتأتي هذه الكثرة الكاثرة من المشايخ ممّن لقيهم الشيخ الصدوق وأخذ عنهم نتيجة طبيعية لوفرة أسفاره وتطوافه بين البلاد الإسلامية وحواضر العلم كخراسان والريّ وبخارى ونيسابور وبغداد والكوفة والحجاز وغيرها من البلاد التي كانت تزدحم أروقة العلم فيها بطلّاب الفضيلة وأئمّة العلم الذين تُشدّ إليهم الرحال من كلّ مكان .

وممّا لا شكّ فيه فإنّ ثمّة فوارق مذهبية أو فكرية كانت موجودة بين هذه المراكز والحواضر ، ربّما تصل إلى حدّ التباين ، ممّا يفتح أُفقاً واسعاً للناظر فيها يساعده على الاحاطة بها والوقوف على اتّجاهاتها ومناحيها .

أجل ، لقد استفاد الشيخ الصدوق من هذه الحواضر وأخذ عن أعلامها من الخاصّة والعامّة . وبالطبع فليس جميع من سمع منه وحدّث عنه على حدّ واحد في مقدار ما استفاده منهم ، فقد كان لبعضهم الدور البارز في تربية الصدوق ﷺ وإسماعه أكثر ما يمكن من الرواية والعلم . ونظراً لضيق المجال عن إيراد فهرس أسماء أساتذته ومشايخه نقتصر على ذكر أبرزهم ، وهم :

١ ـ والده الفقيه الأجل عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي .
٢ ـ الشيخ الثقة الثبت محمّد بن الحسن بن الوليد .
٣ ـ الشيخ محمّد بن عليّ ماجيلويه .

٤ ـ الشيخ الأجلّ محمّد بن موسى بن المتوكّل .

٥ ـ الشيخ أحمد بن عليّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقّاق .

٦ ـ الشيخ محمّد بن يحيى العطّار .

هؤلاء هم أعلام أساتذته البارزين . وينبغي التنبيه هنا على أمرين :

الأمر الأوّل : إنّه قد عدّ المحدّث النوري في جملة أساتذته الشيخ جعفر بن محمّد بن قولويه(٢٤) .

وعقّب المحقّق السيّد الخوئي ﷺ على الكلام المذكور بقوله : « ولم نجده في كتبه ـ أي لم نجد لابن قولويه ذكراً في كتب الصدوق ـ نعم لا مانع من رواية الصدوق ﷺ عنه بحسب الطبقة ، فإنّ جعفر بن محمّد مات سنة ٣٦٨ والصدوق ﷺ مات سنة ٣٨١ ، فلا مانع من رواية الصدوق عنه بحسب الطبقة(٢٥) .

وما ذكره ﷺ في صدر عبارته من عدم وجوده في أسانيد الموجود من كتب الصدوق حقّ لا دافع له ، ولا يمكن احتمال وجوده في المفقود منها ؛ إذ من المستبعد جدّاً عدم نقله فيما بين أيدينا من كتبه ـ ولو في مورد واحد ـ مع اشتهار بعضها خصوصاً من لا يحضره الفقيه .

نعم ، احتمل أُستاذ المجتهدين الوحيد البهبهاني في تعليقته على منهج المقال أن يكون جعفر بن محمّد بن مسرور هو نفس جعفر بن محمّد بن قولويه ؛ لأنّ قولويه ـ كما ذكر ـ اسمه مسرور ، وهو في طبقة الكشيّ إلى زمان الصدوق ، ثمّ قال : فتأمّل(٢٦) .

أقول: منشأ هذا الاحتمال هو ما ذكره النجاشي في ترجمة عليّ بن محمّد بن جعفر بن موسى بن مسرور (أخو ابن قولويه) حيث أبدل بمسرور(٢٧) .

إلّا أنّ المحدّث النوري والمحقّق الخوئي استبعدا الاحتمال المزبور غاية الاستبعاد ، وقد ذكر في معجم رجال الحديث وجهاً للاستبعاد ، فراجع(٢٨) .

وممّا يؤيّد هذا الاستبعاد أيضاً ما ظهر لنا من خلال المقارنة بين أسانيد كامل الزيارات لابن قولويه وتتبّع مشايخه فيه ، وبين الأسانيد التي وقع فيها

جعفر بن محمّد بن مسرور في كتاب من لا يحضره الفقيه ومعاني الأخبار والخصال والتوحيد وإكمال الدين ،فلم نجد وجهاً محصّلاً لما أفاده في التعليقة ، إذ لم نجد تطابقاً بين مشيخة ابن قولويه ومشيخة ابن مسرور ، وكذلك الأمر في باقي رجال السند . نعم ، وجدنا الاشتراك في الحسين بن محمّد بن عامر ، ومحمّد بن عبدالله بن جعفر الحميري مع اختلاف في بعض رجال السند ، ومن الواضح فإنّ الاشتراك في رجلين لا ينهض بإثبات دعوى الاتّحاد إنصافاً .

وعلى هذا ، فإثبات الاتّحاد عسير جدّاً ، بل غير واقع ، وإليك مضافاً لما تقدّم بعض ما يشهد على ذلك :

١ ـ ذكر النجاشي أنّ ابن قولويه روى عن أبيه وأخيه[٢٩] . ومن راجع كامل الزيارات يجد صحّة هذه الدعوى ، بل إنّه أكثر الرواية عن أبيه جدّاً ، في حين أنّا لم نعثر ـ بحسب التتبّع ـ على سند واحد لجعفر بن محمّد بن مسرور يحدّث فيه عن أبيه أو أخيه أو غيرهما من مشايخ ابن قولويه في كتابه ، سوى المشتركَيْن المشار إليهما . بل أكثر ما يحدّث عن الحسين بن محمّد بن عامر عن عمّه عبدالله بن عامر ، ويحدث أيضاً عن محمّد بن جعفر بن بطّة .

٢ ـ إنّ المعروف عند الأصحاب ـ كالمفيد في الأمالي والشيخ في الغيبة وغيرهما ـ التعبير عن ابن قولويه بذكر كنيته (أبوالقاسم) عند ذكر اسمه ، ولم نظفر بمورد واحد ذُكر فيه ابن مسرور بهذه الكنية .

٣ ـ إنّا نستغرب من الشيخ الصدوق ـ على فرض الاتّحاد ـ إهماله التعبير بأشهر اسميه ، وهو (ابن قولويه) ، والتزامه الدائم في التعبير عنه بابن مسرور!

الأمر الثاني : عدّ السيّد بحر العلوم في الفوائد الرجالية[٣٠] ـ كما هو ظاهر عبارته ـ ثقة الإسلام الكليني في جملة مشايخ الشيخ الصدوق ، ولم يذكر هذا ـ بحسب التتبّع ـ أحد سواه ، فإن كان مراده أخذه عنه بالمباشرة فهذا ما لا مثبت له لا في أسانيد كتب الشيخ الصدوق ولا في كتب التراجم ، فلا بدّ أن يكون

المراد الأخذ عنه بالواسطة ، فقد صرّح الشيخ الصدوق في مشيخة الفقيه[٣١] بأنّ ما كان في كتاب من لا يحضره الفقيه عن محمّد بن يعقوب الكليني فقد رواه عن :

١ ـ محمّد بن محمّد بن عصام الكليني .

٢ ـ عليّ بن أحمد بن موسى .

٣ ـ محمّد بن أحمد السناني .

قال : وكذلك جميع كتاب الكافي فقد رويته عنهم عنه عن رجاله[٣٢] .

وبعد الفحص لم نجد في (من لا يحضره الفقيه) إلّا سبعة موارد نقل فيها عنه بلفظ روى محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله ، أو بلفظ في كتاب محمّد بن يعقوب الكليني ، وإليك تفصيل هذه الموارد من كتاب من لا يحضره الفقيه[٣٣] وأيضاً جميع ما ظفرنا به بحسب التتبّع والبحث في باقي كتبه لأهمية الموضوع ، كما لا يخفى .

أوّلاً: من لا يحضره الفقيه وفيه سبعة مواضع كما أشرنا لذلك ، وهي :

١ ـ المجلد ٣ ، الصفحة ٣٥٣ من كتاب الصيد ، باب الأكل والشرب في آنية الذهب والفضّة ، الحديث ١٠ قال : وهذا الحديث في روايات محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله .

٢ ـ المجلد الرابع ، الصفحة ٢٠٣ ، كتاب الوصية ، باب الرجلين يوصى إليهما فينفرد كلّ واحد منهما بنصف التركة ، الحديث الثاني ، قال : وفي كتاب محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله ... الخ .

٣ ـ المجلد الرابع ، الصفحة ٢٢٢ ، كتاب الوصية ، باب الوصي يمنع الوارث ماله بعد البلوغ ، الحديث الأوّل ، قال : روى محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله ..إلخ .

٤ ـ المجلد الرابع ، الصفحة ٢٢٧ ، كتاب الوصيّة ، باب الرجل يوصي إلى رجل بولده ، الحديث الأوّل ، قال : روى محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله ...إلخ .

٥ ـ المصدر السابق ، الصفحة ٢٣٢ ، كتاب الوصية ، الباب السابق ، الحديث السابع ، قال : وروى محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله ... إلخ .

٦ ـ المصدر السابق والكتاب والباب المتقدّمين ، الصفحة ٢٣٦ ، الحديث السابع عشر ، قال : وروى محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله ... إلخ .

ثانياً: كتاب الخصال وفيه مورد واحد[٣٤] . قال : حدّثنا محمّد بن عليّ ماجيلويه رحمه الله قال : حدّثنا محمّد بن يعقوب الكليني ... إلخ .

ثالثاً: كتاب التوحيد وقد روى عنه في عشرين موضعاً[٣٥] بطرق وأسانيد متعدّدة ، روى بعضها عن محمّد بن محمّد بن عصام الكليني منفرداً ، وفي بعضها منضمّاً إلى عليّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقّاق ، وروى بعضها عن الثاني منفرداً .

رابعاً: إكمال الدين روى فيه عن الشيخ الكليني في عشر مواضع[٣٦] ، في تسع منها عن محمّد ابن محمّد بن عصام الكليني ، والعاشر عنه وعن عليّ بن أحمد الدقّاق وعليّ بن عبدالله الورّاق .

خامساً: علل الشرائع روى عنه في سبعة مواضع[٣٧] ، في ثلاث منها عن محمّد بن محمّد بن عصام الكليني والباقي عن عليّ بن أحمد بن محمّد الدقّاق .

سادساً: معاني الأخبار روى عنه في خمسة مواضع[٣٨] ، ثلاثة منها عن محمّد ابن محمّد بن عصام الكليني ، والرابع عن عليّ بن أحمد بن محمّد الدقّاق ، والخامس عن عليّ بن أحمد بن موسى .

سابعاً: عيون أخبار الرضا عليه السلام روى عنه في ستّة مواضع[٣٩] ثلاثة منها عن ابن عصام الكليني ، وفي واحد عن محمّد بن عليّ ما جيلويه ، وفي آخر عن عليّ ابن أحمد الدقّاق ، والأخير عن الدقّاق وعليّ بن عبدالله الورّاق ، وابن عصام الكليني ، والحسن بن أحمد المؤدّب ، والحسين بن إبراهيم المؤدّب جميعاً .

ثامناً: كتاب الأمالي روى فيه عن الكليني في ستّة مواضع ، أربعة منها عن ابن عصام الكليني ، والخامس عن عليّ بن أحمد بن موسى ، والسادس عن محمّد بن موسى بن المتوكّل[٤٠] .

وعلى هذا يكون مجموع ما رواه الشيخ الصدوق عن محمّد بن يعقوب الكليني ﷺ هوا ثنان وستّون رواية أو ما هو قريب منه لاحتمال التكرار ، بحسب بعض المطبوع من كتبه ، وأمّا البعض الآخر وهي كتاب عقاب الأعمال ، وكتاب ثواب الأعمال ، وكتاب المواعظ وصفات الشيعة ، وفضائل الأشهر الثلاث ، ومصادقة الاخوان وكتاب المقنع وكتاب الهداية فلم يحدّث في شيء منها عنه .

٦ ـ قدراته الذاتية (نبوغه وبراعته)

لقد كان من الطبيعي أن تترك دعوة الإمام الحجّة (عج) في حقّ الشيخ الصدوق آثاراً عظيمة في تكوين شخصيّته الفذّة ومؤهّلاتها العلمية ، فظهرت آثار تلك الدعوة المباركة في عدّة مجالات من حياته ، كان أهمّها حبّه الواسع للعلم ، وحدّة ذكائه وبراعته ، وقوّة حفظه لما يسمع ، حتى عُرِف عنه ذلك واشتهر بين القمّيّين وكانوا يعزون الأمر فيه لدعاء الإمام (عج) ، وربّما صارح بعضهم شيخنا الصدوق به . وهذا ما يحدّثنا به الشيخ الصدوق نفسه حيث يقول : « كان أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الأسود ﷺ كثيراً ما يقول لي ـ إذا رآني أختلف إلى مجلس شيخنا محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد ﷺ ، وأرغب في كتب العلم وحفظه ـ : ليس بعجب أن تكون لك هذه الرغبة في العلم وأنت ولدت بدعاء الإمام عليه السلام »(٤١) .

ولا شكّ فإنّ حضوره في سن مبكّر على أُستاذ عظيم كابن الوليد بحيث يستوي صفّه مع بقيّة الحضّار من مشايخ الحديث والرواية ينطوي على معنى كبير في ذاته ، ويعكس بلا شكّ نبوغ الصدوق وتقدّمه على أترابه ، لا بل على مشايخ الحديث في وقته ، فقد نقل الرجالي الكبير أبو العبّاس النجاشي : أنّ شيوخ الطائفة سمعوا منه وهو حدث السن(٤٢) .

وينقل شيخ الطائفة الطوسي في كتابه الغيبة عن أبي عبدالله بن سورة ﷺ أنّه كان يقول : « كلّما روى أبو جعفر ـ يعني به الصدوق ـ وأبو عبدالله ابنا عليّ بن

الحسين شيئاً يتعجّب الناس من حفظهما ويقولون لهما : هذا الشأن خصوصية لكما بدعوة الإمام لكما ، وهذا أمر مستفيض في أهل قم »[٤٣] .

وقال الشيخ الطوسي أيضاً عن حفظه وفطنته « لم ير في القمّيّين مثله في حفظه وكثرة علمه »[٤٤] . بل في دراية والد الشيخ البهائي أنّه لم يُرَ في عصره مثله في حفظه وكثرة علمه[٤٥] . ووصف الذهبي حفظه بأنّه يضرب به المثل[٤٦] وكان أخوه الفقيه الحسين بن عليّ رحمه شريكاً له في الحفظ والذكاء فإنّه عقد مجلس البحث والتدريس وله من العمر دون العشرين سنة ، ولا ريب فإنّ لهذا الأمر مدلوله الخاصّ في قم ذلك المركز العلمي الحافل بأئمّة العلم ومشيخة الحديث والفقه والتفسير .

وبالطبع فقد أفرز هذا النبوغ الذي حظي به شيخنا المترجم تراثاً علمياً ضخماً قد ناهزت مؤلّفاته الثلاثمئة .

أنوار من سيرة الشيخ الصدوقﷺ : حياة العلماء مليئة بالدروس والعبر ، وحريٌّ بكلّ طالب علم ومثقّف أن يتملّى ويتزوّد لحياته من الملكات الفاضلة والخصال الروحية الرفيعة التي كان يتمتّع بها علماؤنا .

وإنّا إذ لا زلنا نتصفّح حياة شيخنا الصدوق ونتفيء ظلاله ، ونُمتع ناظرنا ببحبوحة رياضه وجنانه نجد الكثير من مشاهد العبر ، ودروس العظمة في حياة ومواقف هذا الرجل العظيم ، تُعرّفنا على غنى معدنه ، وعظيم سرّه وذاته . وقد شاء الزمن أن يكشف عن طرف من ذلك من خلال البحث والمطالعة في فناء حياته الشريفة ، ولعلّ ما خفي علينا كثيراً جدّاً لا يعرفه إلّا الله فهو أعلم بعباده .

وبما أنّ المنشود من تسجيل حياة العلماء والحديث حولها ، ليس هو العرض المجرّد ، بل الانتفاع بسيرتهم وتكميل النفوس باقتفاء أثرهم والتخلّق بأخلاقهم ، نلوي عنان القلم لاستعراض نفحات طيّبة ودروس بليغة من حياة الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) من خلال النقاط التالية :

أوّلاً ـ الاحساس بالمسؤولية: من الأُمور التي تميّز بها فقهاؤنا على مرّ العصور شعورهم بالمسؤولية، ونهوضهم بأعبائها في جميع مواقع الحياة ومجالاتها. ولا يخفى هذا الأمر على كلّ من سبر تاريخ أُولئك الأعاظم وتأمّل في تفاصيله ووقائعه. ولا غرو فإنّ الفقهاء هم حصون الأُمّة وحماتها.

وإنّ المتتبّع لحياة شيخنا الصدوق أعلى الله مقامه يجد تجسيد ذلك في أكثر من مجال من حياة هذا الإمام الفقيه الذي كان يقدّر مواقع المسؤولية في جسم الأُمّة فيحاول أن يملأها بوجوده الشريف تارة وبقلمه وبيانه أُخرى، وبسجالاته ومناظراته تارة ثالثة.

ولعلّ في طليعة تلك المسؤوليات التي وضعت نفسها بين يدي شيخنا الصدوق ﷺ تستنهضه لحمل أعبائها، سفره إلى الريّ وإقامته فيها برغبة وطلب أهلها الذين رغبوا في حضوره وإقامته للإفادة من محضره على كثرة من في الريّ من المحدّثين والفقهاء وذوي الفضل.

ولم يرد في المصادر تحديد دقيق لتاريخ هجرته إلى الريّ. نعم الموجود في أسانيد بعض كتبه[٤٧] وجوده بقم إلى سنة ٣٣٩.

وعلى أيّ تقدير فقد نزل الشيخ الصدوق بالري والتفت حوله جماهيرها ومحدّثوها، يستمطرون وابل علمه ويستظلّون بغمائم فضله، قد غمرتهم رعاية الشيخ وعنايته، وعلاهم وقاره وهيبته، وبهرتهم غزارة علمه وتدّفقه ما تركهم عكوفاً على بابه، ذاهلين عمّن سواه.

ولقد كان من ثمرات وجوده ﷺ بالري دفاعه عن المذهب الحقّ من خلال محاججاته ومناظراته مع بعض علماء المسلمين أو الملاحدة بحضرة الأمير ركن الدولة البويهي الذي كان مجلسه واسعاً لأهل العلم والفضل، وقد جرت تلك المناظرات في موضوعات شتّى كالإمامة ومسألة النصّ والغيبة وغير ذلك. وكان الشيخ يُلزم أنداده في البحث بالأدلّة الدامغة والحجج الساطعة فيمسك الخصم عن مجاراته ويذعن بالحقّ الصراح الذي كشف الشيخ عن جلّيته وأماط اللثام عن غرّته.

وهكذا نجد المسؤولية في موضع آخر تحرّك شيخنا الصدوق لأن يقف بنيسابور بعد منصرفه من مشهد الإمام الرضا عليه السلام ، ليذبّ الشبهات والتشكيكات حول موضوع الغيبة ، التي حيرّت أتباع أهل البيت عليهم السلام حتى عدلوا عن طريق التسليم إلى الآراء والمقاييس[٤٨] ، ثمّ يصنّف بعد ذلك كتاب إكمال الدين لاستئصال شأفة الشبهة وفقء عين الفتنة . وبمثل هذا الحماس والحميّة على الحقّ هبّ يذود عن المذهب ويبرّئه بالمنطق العلمي ممّا نسبه إليه البعض من القول بالجبر والتشبيه فقبّحوا بذلك عند الجهال صورة مذهبنا ولبّسوا عليهم طريقتنا[٤٩] ، فوضع للردّ على تلك التخرّصات والسفاسف كتاب « التوحيد » .

وهكذا ، فقد كان الشيخ الصدوق يتحرّى مواقع الحاجة فيندفع لرفعها ولو كانت في اطار ضيّق وفردي ، كما في تأليفه لكتابه العظيم « من لا يحضره الفقيه » إذ كان ذلك استجابة لرغبة كاشف بها الشريف محمّد بن الحسن أبو عبدالله ـ المعروف بنعمة ـ شيخنا الصدوق رحمه الله في أن يصنّف له كتاباً في الحلال والحرام[٥٠] (رسالة عملية) ، فلبّى الشيخ الصدوق رغبته وأجابه إلى مُنيته من غير تعلّل أو اعتذار في إنجاز هذا السفر الكبير لرغبة إنسان واحد ، وذلك عندما وجد أنّ من مسؤوليته القيام بمثل هذا الأمر .

ولعمري ، فإنّ هذا التواضع الجمّ والخُلق الرفيع لهو من دلائل العظمة وسموّ الذات ولا يجمع العلم إلّا بالتواضع وما تلك الأُبّهة والمجد الذي بناه الشيخ الصدوق إلّا من ثمرات تواضعه وخصاله الحميدة ، وحقّاً فإنّ من تواضع لله رفعه .

ثانياً ـ إخلاصه: لا ريب أنّ عامل الإخلاص يمثّل جوهر العمل ولبّه ، فهو الذي يوجّه الممارسة فينقلها إلى عالم المعنى والعبادية ومن ثمّ يرشّحها للقبول . كما أنّه يضمن سلامة العمل واستكماله ببلوغه المراحل النهائية منه حتى يكتب له البقاء والخلود . وقد تجلّى عامل الإخلاص في أعمال الشيخ الصدوق رحمه الله بشكل بارز وملموس من خلال ما سطّرته يراعته من مؤلّفات . وإليك بعض النماذج التي استهلّ بها كتبه لتكشف عن طرفٍ ممّا ذكرنا .

قال في خطبة الخصال بعد أن ذكر العلّة من تصنيف الكتاب : فتقرّبت إلى الله جلّ سمه بتصنيف هذا الكتاب ، طالباً لثوابه ، وراغباً في الفوز برحمته ، وأرجو أن لا يخيّبني فيما أمّلته ورجوته منه بتطوّله ومنّه ، إنّه على كلّ شيء قدير .

وفي ثواب الأعمال : إنّ الذي دعاني إلى تأليف كتابي هذا ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : الدالّ على الخير كفاعله ، وسمّيته كتاب (ثواب الأعمال) وأرجو أن لا يحرمني الله ثواب ذلك ، فما أردت من تصنيفه إلّا الرغبة في ثواب الله وابتغاء مرضاته سبحانه ، ولا أردت بما تكلّفته غير ذلك ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وفي كتاب التوحيد ـ بعد التنبيه على الداعي لتأليف الكتاب ـ قال : فتقرّبت إلى الله تعالى ذكره بتصنيف هذا الكتاب في التوحيد ونفي التشبيه ، مستعيناً به ومتوكّلاً عليه ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

هذه نظرة سريعة في لوح الإخلاص الذي سجّل فيه الشيخ الصدوق جملة من أعماله ، ولا شكّ فإن إخلاص الشيخ وسلامة نواياه كانا وراء خلوده واشتهار صيته .

ثالثاً ـ شغفه بالعلم: عندما تتقدّس الغاية يتضاءل كلّ ما دونها ، وعندما يسمو الهدف يصغر جميع ما سواه . ولقد كان العلم من أجل إحياء الدين وخدمة الشريعة هدفاً مقدّساً عند الشيخ الصدوق رحمه الله تراجعت أمامه جميع الأولويات في حياة هذا الرجل الفذّ ، وأرخص دونه كلّ غال من الراحة والاستقرار والدعة .

كان الشيخ الصدوق دؤوباً في طلب العلم منذ صباه وهو يعيش تحت رعاية أبيه ، حريصاً على تحصيله وضبطه ، منصرفاً عمّا سواه ، وقد هيّأه انقطاعه للعلم للحضور عند أكابر العلماء والمحدّثين في قم ، ثمّ رشّحه نبوغه للتصدّي لكرسي الحديث ، فسمع منه شيوخ الطائفة وهو في حداثة سنّه وباكورة عمره .

ولم يوقفه شغفه بالعلم للاكتفاء بما في حاضرته العلمية بقم ، بل جنح به لتحمّل وعثاء السفر ومكابدة الغربة ، والابتعاد عن الأهل والوطن ، لا يثني عزمه

بُعد الشقّة ولا يفتّ في إرادته ألم الغربة أو شيخوخة السن ، وقد نيّف على الستّين[٥١] ممّا يعني أنّه كان ماضياً في طلب العلم وجمع الحديث من أصقاع الأرض حتى قبل وفاته بما يقلّ عن العقد[٥٢] .

ولعمري إنّ هذا لهو أعظم الجهاد ، وأبلغ الدرس في المثابرة والاستقامة يقدّمه أمثال الشيخ الصدوق لأجيالنا الحاضرة من طلبة العلم . نسأل الله تعالى الرشاد لما هدى إليه السلف الصالح .

رابعاً ـ تواضعه: من السمات البارزة في سيرته تواضعه في طلب العلم مع ما كان عليه أمره من الجلالة والفضل والمكانة العلمية الرفيعة ، إلّا أنّ ذلك لم يكن يصدّه عن الأخذ والإفادة من الآخرين ، وهذا ما يتكفّل بإثباته أسفاره التي دامت حتى أُخريات حياته يبادل السماع فيها أرباب الحديث وهو رئيس الإمامية وصاحب التصانيف القيّمة الغزيرة ، حتى إنّه لمّا ورد سرخس وايلاق سنة ٣٦٨ وكان ذلك في أواخر حياته حيث توفّي ٣٨١ سمع فيهما من أبي نصر محمّد بن أحمد السرخسي الفقيه ، وأبي الحسن محمّد بن عمرو بن عليّ بن عبدالله البصري ، وأبي نصر محمّد بن الحسن بن إبراهيم الكرخي الكاتب ، وأبي محمّد ابن بكر بن عليّ بن فضل الحنفي وغيرهم ، مع أنّه كان معه من كتبه في تلك السفرة مئتان وخمس وأربعون كتاباً نسخها الشريف أبو عبدالله المعروف بنعمة بأجمعها عند وروده على الشيخ الصدوق بقصبة ايلاق ، كما نصّ عليه الصدوق نفسه في خطبة من لا يحضره الفقيه ■

الهوامش

(١) ولمزيد التفصيل عن نشوء هذه الدول وأحوال حكّامها راجع كتاب الشيعة في الميزان للعلّامة المرحوم الشيخ محمّد جواد مغنية : ١٢٧ فما بعد . وكتاب تاريخ الإسلام السياسي والديني للدكتور إبراهيم حسن ـ المجلّد الثالث .

(٢) الكامل في التاريخ ٥ : ٤١٣ ، حوادث سنة ٣٦٦ ، ط . دار إحياء التراث العربي وأيضاً الدكتور حسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام ٣ : ١٠٩ .

(٣) الكامل في التاريخ ٥ : ٤١٣ ، ط . دار إحياء التراث العربي .

(٤) مجالس المؤمنين ١ : ٤٥٦ .

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٥ : ٤٣٧ ، ط . دار إحياء التراث العربي ، حوادث سنة ٣٦٩ . وقال في الكنى والألقاب ٢ : ٤٦٩ : «كان فاضلاً محبّاً للفضلاء وكان يعظّم الشيخ المفيد غاية التعظيم» .

(٦) ذكر ابن خلكان من مصنّفاته كتاب الإمامة ذكر فيه تفضيل عليّ وإثبات إمامته وكتاب المحيط في اللغة ، وقصده فحول الشعراء ومدحوه بأحسن المدائح منهم أبو الطيّب المتنبّي . . .

(٧) عيون أخبار الرضا ١ : ٣ .

(٨) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٤٠٠ .

(٩) الذي نعتقده زيادة أسفاره على العدد المذكور ، إذ هو مستخرج من أسانيد كتبه التي يؤرّخ فيها تأريخ السماع ومكانه ، ولا شكّ فإنّ هناك ما لم يؤرّخ له الشيخ الصدوق ، هذا بلحاظ الموجود من كتبه المطبوعة ، وأمّا إذا لاحظنا كتبه المفقودة سيّما كتابه العظيم (مدينة العلم) فإنّ ما أرّخه لسماعه ومكانه فيها الكثير على ما ذكرنا قطعاً .

(١٠) قد اعتمدنا في ترتيب أسفاره على ما استخرجه العلّامة الشيخ عبدالرحيم الربّاني من أسانيد كتب الشيخ الصدوق في مقدّمته على معاني الأخبار وكذلك ما سطّرته يراعة الحجّة السيّد حسن الخرسان في مقدّمته على «من لا يحضره الفقيه» .

(١١) مراصد الاطّلاع ٢ : ٦٥١ .

(١٢) معجم البلدان ٣ : ١١٧ و ١٢١ .

(١٣) اكمال الدين : ٥٣٢ .

(١٤) معجم البلدان ٦ : ٣٥٠ .

(١٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١ : ٣٢٢ .

(١٦) اللوامع ١ : ١٤٨ .

(١٧) مقابس الأنوار للتستري : ٧ .

(١٨) معجم البلدان ٥ : ٣٣١ .

(١٩) رجال النجاشي : ٣٩٢ .

(٢٠) تاريخ بغداد ٣ : ٨٣ .

(٢١) وفي خاتمة المستدرك ٣ : ٧١٣ ضبطه (الهيبستي) .

(٢٢) قد وقع هذا التوهّم للمحدّث النوري في خاتمة المستدرك ٣ : ٥٢٥ ، والسيد صدرالدين على ما نقله عنه في تنقيح المقال ٣ : ١٥٥ . والعلّامة المجلسي الأوّل في شرحه على من لا يحضره الفقيه الموسوم باللوامع ١ : ٥٤ .

(٢٣) خاتمة المستدرك ٣ : ٧١٣ .

(٢٤) خاتمة المستدرك ٣ : ٧١٤ .

(٢٥) معجم رجال الحديث ٤ : ١٢٠ .

(٢٦) تعليقة الوحيد على منهج المقال (مخطوط) : ٤٥ ذيل ترجمة جعفر بن محمّد بن مسرور .

(٢٧) رجال النجاشي : ٢٦٢ .

(٢٨) راجع أيضاً ما ذكر المحقّق الشيخ عبدالرحيم الربّاني في مقدّمة معاني الأخبار صفحة ٤٥ حيث ذكر وجوهاً أُخرى للاستبعاد، فراجع .

(٢٩) رجال النجاشي : ١٢٣ ، الرقم ٣١٨ .

(٣٠) الفوائد الرجالية : ٣ : ٣٠١ .

(٣١) من لا يحضره الفقيه (المشيخة) ٤ : ١٢٢ ، ط . دار التعارف .

(٣٢) المصدر نفسه .

(٣٣) اعتمدنا في تخريج هذه الموارد طبعة مؤسّسة النشر الإسلامي .

(٣٤) الخصال : ٤٨٠ ، ط . مؤسّسة النشر الإسلامي .

(٣٥) التوحيد : ٧٢ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٦ ، ١٩٠ ، ٢٢٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥٤ ، ط . مؤسّسة النشر الإسلامي .

(٣٦) إكمال الدين : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٤٠٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٨٣ ، ٥٢٣ ، ٥٣٧ ، ط . مؤسّسة النشر الإسلامي .

(٣٧) علل الشرائع : ١ ، ١٣٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣١٧ ، ٣٨٩ ، ط . المكتبة الحيدرية .

(٣٨) معاني الأخبار : ٦ ، ١٤ ، حديث ٤ و ٥ ، ٦٤ ، ٤٠٣ ، ط . مؤسّسة النشر الإسلامي .

(٣٩) العيون ١ : ٦٠ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٢ ، ٢٠٠ ، وج٢ : ١٨٧ ، ط . مؤسّسة الأعلمي .

(٤٠) الأمالي : ٢٢٨ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٥٣٦ ، ط . مؤسّسة الأعلمي .

(٤١) إكمال الدين وإتمام النعمة : ٥٠٣ .

(٤٢) رجال النجاشي : ٣٨٩ .

(٤٣) الغيبة : ٣٠٩ .

(٤٤) الفهرست : ١٥٧ .

(٤٥) الدراية : ٧٠ ، ط . ايران سنة ١٣٠٦ .

(٤٦) سير أعلام النبلاء ١٦ : ٣٠٣ .

(٤٧) عيون أخبار الرضا ١ : ٢٠٥ ، ط . منشورات الأعلمي .

(٤٨) مقدّمة الشيخ الصدوق على إكمال الدين : ٢ .

(٤٩) مقدّمة المؤلف على كتاب التوحيد .

(٥٠) مقدّمة المؤلّف على من لا يحضره الفقيه .

(٥١) وقد أعرب الشيخ الصدوق في إحدى أسفاره عن عواطفه في دار الغربة ، راجع مقدّمته على من لا يحضره الفقيه ص١ ، وكذا مقدّمته على إكمال الدين عند تعرّضه للمنام الذي رأى فيه صاحب الأمر عليه السلام يأمره بتأليفه .

(٥٢) الذي يظهر أنّ آخر أسفار الشيخ كانت في يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان من سنة ٣٦٨ إلى ديار ما وراء النهر كما في المجلس ٩٤ من أماليه : ٥٢١ . ولا يستبعد أن يكون للشيخ رحلات أُخرى بعد هذا التأريخ لم يُنصّ عليها في كتبه الأُخرى وفي معاجم التراجم .

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ